وكأنه يستنفد وسائل ذلك التمنى على اختلاف صورها ، ومعها تزداد لغة الحنين عمقا من خلال هذا الربط بين الغضا والإبل ، ثم الغضا والركب ، والغضا وليالى الرحيل ، ثم أهل الغضا ، وأمنية المزار ، وأمل اللقاء ، وكأنه يحاول جاهدا أن يبحث عن وسيلة يتعزى بها ، لعله يتجاوز تلك الذكريات فيستعين بندائه للرفيق ، ربما يخفف عنه شيئا من محنته ، فيطلب منه مسامرته أيضاً ، حول الغضا وأهله ، إذ أيقن أنه لا عودة إليه ، فالأفضل له أن يقتصر منه على عالم الأمنية التى يتمناها ، ويبقى له أن يصورها ، ثم ينصرف من أغلى ممتلكاته ، من الغضا وعلاقاته ، إلى موقف يبدو أكثر اعتزازاً به ، يعكسه ذلك التحوُّل الجوهرى فى حياته من عالم الصعلوك إلى عالم المجاهد الإسلامى الذى لاتراه إلا غازيا وفاتحا مناضلا ، وكأنه يوظف البيت الخامس فاصلا بين عهدَيْن ، بما يرمي إليه من مفارقات تبدو غاية فى الطرافة ، وتظل لها دلالتها النفسية العميقة ، إذ يستمر فى حواره حول الأرض ، ولكنه ينأى به قليلا عن منطق الحنين والحب والوفاء ، إنها هناك أرض يبغضها بغضه لأهلها ، ولايحمل لها فى نفسه نظيرا لما عرضه فى الأبيات الأولى على الإطلاق ، بل يراها أرضا للأعادى ، وهو ما يكفى لتصوير بغضه لها ولمن فوقها من البشر ، فقد أصبح فيها غازيا بعد أن كان عنها بعيدا نائيا ، ووقتئذ كان فى مأمن من إمكانية لحاق الموت به في خضم تلك الغربة النائية .

وكأنه حين يتلقى صدمة الكره هذه يحاول منها فراراً ، فيسارع إلى العودة إلى ذكريات وطنه وأهله وصحبته ورفاق صباه ، وكأنه لا يستطيع أن يعيش دون تلك الذكريات ، وليس أمامه من متنفس سوى تلك الزفرة التي تترجم مستوى الألم لديه ، هى زفرة انتزعته من واقعه المرير إلى ذكريات أشد مرارة تتعلق بمشهد ابنته ، وقد أدركت خطر رحلته ، وطولها ، إذ راحت تتعلق به خوفا علي مصيرها من اليُتم المنتظر ، عندئذ يعود إلى ذكر خراسان التى يزداد لها بغضا ، وقد كان بالفعل بمنأى عنها ، وهي تمثل بالنسبة إليه الآن بؤرة صراع نفسى خطير ، إذ يردد ذكرها بما يجلّى ذلك البغض الذى ذكره قبل ذلك حين كنىَّ عنها بأرض الأعادى ، ولكنها الآن تمثل خطرا عليه ، ففيها سيكون موته ، ومنها سيكون الفراق الأبدى له عن ابنته وبقية أهله .

وكأنى به لا يريد الاستسلام لأزمة المفارقات المتوالية على هذا النحو ، إذ سرعان ما يعود إلى ذكر وطنه ، وكأنه يعود إلى استحسان ما صنعه حين تحول إلى مجاهد يستغني عن